مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255/E-ISSN 2588-2414
المجلد09 العدد 03– ديسمبر 2022

OEB Univ. Publish. Co.

الجمالية الفنية لرحلة الجزائرية في العهد العثماني: رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي لابن هطال التلمساني –أنموذجا–

The artistic aesthetic of the Algerian journey in the Ottoman era: Muhammad al-Kabir's journey to the desert south by Ibn Hatal al-Tlemceni - a mode-

1.الطالبة :بن شريف هاجر،مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر،جامعة أحمد بن بلة1 ،وهران bencherifhadjer5@gmail.com

2.مشرفة : د.العزوني فتيحة ،مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر،جامعة أحمد بن بلة1 ،وهران lazounif@gmail.com

تاريخ التسليم:2020/10/18 تاريخ التقييم:2022/11/17 تاريخ القبول:2022/3/10

الملخص

يتناول هذا المقال دراسة توضيحية لإظهار مدى أدبية رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي لابن هطال التلمساني وشرعية دراستها من الجانب الفني كنص سردي يتمتّع بجميع المقوّمات، حيث أنّه جمع بين النثّر الّذي كان غالبا فيه ،والشعر المقتبّس ،كما تميّزت بالإيجاز والدّقة في سرد ووصف عناصره (الشخصية ،المكان والزمان) ،حيث تعد هذه الرحلة من أهم المصّادر في العهد العثماني .

الكلمات المفتاحية :أدبية ،رحلة محمد الكبير،الشخصية ،المكان ،الزمان

Abstract

This article deals with an illustrative study to show the literary extent of Muhammad al-Kabir's journey to the desert south by Ibn Hatal al-Tlemceni and the legitimacy of studying it from the technical side as a narrative text that has all the ingredients, as it combined prose, which was often in it, and quoted poetry, as it was characterized by brevity and accuracy in narration and description of its elements (Character, place and time), as this journey is one of the most important sources in the Ottoman era.

Key words:
Literary, The Journey of Muhammad the Great, Character, Place, Time

*المؤلف المراسل: بن شريف هاجر، الإيميل: bencherifhadjer5@gmail.com

1-مقدمة :

إنّ أدّب الرحلة العربيّ كان في بداية القرن التاسع عبارة عن وثيقة تاريخيّة وجغرافيّة يهدف الرحّالة من خلاله إلى البحث عن معلومات جغرافيّة و تاريخيّة في تلك البلاد التي يقصدها ،ابتداء من القرن الثاني عشر،تحوّلت الرحلة إلى وثيقة اجتماعيّة وثقافيّة،تنقل العادات والثقافات للمجتمعات الأخرى ،أمّا في المرحلة الثانية الّتي عقّبت المرحلة الأولى ،تميّزت بتغير اتجاه الرحلة صوب الغرب بغية اكتشاف سّر التقدّم الحضّاري،وأسباب النهضة التي شهدّتها الدولة الغربية.

من المؤكّد أنّ الجزائريين كغيرهم من أبناء هذه الأمّة عبر التّاريخ ،كانت لهم خلال العهد العثماني وغيره رحلات في بلاد المغرب تارة ،وفي بلاد المشرق تارة أخرى الغرض منها السعي نحو طلب العلم رغبة في تحصيله أوّلا وتعليمه ثانيا،إلاّ أنّ أغلب هذه الرحلات ضاعت أو لم يسجّلها أصحابها،حيث أنّ الجزائريين في هذا الفن كانوا قليلي الإنتاج ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ عددا من العلماء الذين توزّعوا في العالم الإسلامي لم يعودوا إلى الجزائر ليكتبوا ملاحظاتهم إلى مواطنيهم(**1**) (ينظر :أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ص396).

كما نجد أن هذا النوع من الأدب لم يسبق للجزائر أن عرفته في العصور التي مضت بحيث قد ازدهر في عهد الأتراك ،إذ لم نسجل في تاريخ الجزائر حجما لنصوص الرّحلة مثلما سجّلناه في هذا العصر،ولعلّ نصوص هذه الفترة تفوق مجموع نصوص العصور السالفة ،حتى في عهود كانت فيها الثقافة والعلم في مراتب عالية مثل العهد الموحدي والحمادي والزياني ،حيث شهدت مظاهر الثقافة تميّزا وتفوقا.

وإذا كان هذا حال الأدب في هذه الفترة من تاريخ الجزائر الثقافي،فإنّه قد تحقّق في الآن نفسه تدوين كثير من الرّحلات حيث "أسهم الجزائريون مساهمة واضحة في كتابة الرّحلات لاسيما خلال القرن الثاني عشر الموافق (18م) (**2**) (أبو القاسم سعد الله ،محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ،ص 381) ،وبالتالي إنّ الضعف الّذي عهدناه حول الحالة الثقافية والعلمية خلال الحكم العثماني للجزائر ،لا نجده يتوافق مع ما كان للجزائر من نشاط رحلي وإسهامات في أدب الرحلة.

حيث سنقوم من خلال هذه الدراسة ،إلى توضيح أهم الأنماط والأهداف التي بنيت عليها الرحلات الجزائرية في العهد العثماني و ابراز أهم قيمها عموما ،وعلى الخصوص رفع الستار عن رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي لابن هطال التلمساني ،هو ما حفزنا نحو الاقتراب منها في ظل أدوات إجرائية تساعدنا في إثارة جملة من التساؤلات أهمها :هل يعتبر نص الرحلة مصدرا أدبيا مهما خلال فترة العهد العثماني ؟وكيف توضحت الشخصية في نص الرحلة ؟ وما مدى اهتمام ابن هطال بعنصري المكان والزمان للرحلة ؟

وتتوخى هذه الدراسة ابراز مدى أدبية رحلة محمد الكبير و شرعية دراستها من الجانب الفني كنص سردي ،"فاعتمدنا على المنهج التحليلي الوصفي الذي يهتم بتحليل النصوص الإبداعية قصد الوقوف على جمالية هذا النص .

2- الرّحلة الجزائرية في العهد العثماني :

يعيش الرحالة أثناء رحلته واقعه ويتفاعل معه ويتأثّر به وببنيته سواء تلك التي منها ينطلق ونعني بها البيئة الأصلية أو تلك التي يعيش فيها ويتواصل مع أهلها خلال مسار رحلته والتي نسميها بيئة المسار.

ومنه فإن الرّحلات الجزائرية في عهد الحكم العثماني ،تنوعت بتنوّع العوامل التي دفعت إليها ،والأهداف التي ساعدت من أجل الوصول إليها ،فكانت الحجيّة (الحجازية) والحركة (التي تكثر فيها الحركة) ،والجهادية (التي تكون لأجل الدفاع عن البلاد) والعلمية (لطلب العلم و الالتقاء بالعلماء) ،ولكنّها على عكس هذا التنوّع في المواضيع والغايات إلاّ أنّها جاءت كلّها متقاربة في سردها ولغة خطابها وطبيعة أسلوبها،ولم تخرج في ذلك عمّا تميّزت به كتابات العصر من حيث الميل المفرط في توظيف مختلف المحسنات البديعية وشتّى أنواع صور البيان،وهو ما أثّر سلبا في كثير من الرّحلات ،التي بدا عليها الاضطراب وعدم التماسك والتناسق بين أجزاءها.

فالرحلة الحجازية أو الحجّية هي تلك الرّحلة التي يتّجه من خلالها صاحبها إلى البقاع المقدّسة بنيّة أداء فريضة الحج ،وهي رحلة تشدّ فيها الرّحال إلى مكة المكرّمة من أجل إتمام الركن الخامس من أركان الإسلام،كما أنّها ليست كغيرها من الرّحلات باعتبارها ذات علاقة بعقيدة الإنسان ودينه ،وهي مفروضة على كلّ قادر عليها من المسلمين ،فالحج لمن استطاع إليه سبيلا.

ويعتبر هذا النوع من الرّحلات الأكثر هيمنة على الرّحلات الجزائرية خلال العهد العثماني ،بل عبر مختلف العصور الّتي تلت الفتح الإسلامي ،فالجزائريّون على غرار أهل المغرب العربي عموما عشقوا البقاع المقدّسة وتعلّقت قلوبهم بها، فشدّوا الرّحال نحوها رغم بعد المسافة و أهوال الطريق ومشقّة السّفر،إلاّ أنّ ذلك لم يقف في وجه الراغبين في تأدية الركن الخامس،بل إنّه كان محرّكا للعواطف الجياشة نحو هذا المكان المقدّس :"ولذلك فهم يسجّلون عواطفهم المتأجّجة لرؤية الحجاز وأهله والتبرّك بترابه وهوائه والّذي يقرأ مقدّمة ابن عمّار يدرك هذه الحقيقة " **(3)** (أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي،ص 388).

قسّمت الرحلات الحجازية في العهد العثماني إلى قسمين شعرية ونثرية أهمها :رحلة *إبن عمّار المسماة (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب)**(4)**(أحمد ابن عمار،رحلة نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب ،ص8) حيث أن ابن عمّار قد حجّ لأوّل مرّة سنة 1166هـ وقد جاور

بالحرمين حوالي اثنتي عشر سنة،ومن خلال هذه الرحلة وصف الرحّالة أشواقه إلى الحرمين وإلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

كما أسهم *الورثلاني في نشأة الرّحلة الجزائرية ،حيث تعتبر رحلته (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)(5)(الحسين بن محمد الورثيلاني،نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار ،ص19) من أهمّ رحلات المغرب العربي،نظرا لما تحمله على صفحاتها التي ناهزت الثمانمائة (800) من الأخبار المتنوّعة بين الأدب والتاريخ والدين والاجتماع والسياسة ،والأوصاف الدقيقة للمدن والديار،إضافة إلى ما نجده من تحديد للممالك وتعريف بالمسالك ناهيك عن التعريف بالشخصيات.

و رحلة"فتح الإله ومنته في التحدّث بفضل ربي و نعمته "لمحمد أبي راس النّاصري (6)(أبو راس الناصري ،فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته ،ص91) قد ظهر فيها كعلَم من أعلام الجزائر البارزين في ميدان العلم و الرّحلة في الأيّام الأخيرة من العهد العثماني ،وتتميّز رحلته هذه بمنهجها الدّقيق وأسلوبها الرّصين الأقرب إلى العلمية في معظم أجزائها ،وبخلوّها من الحديث عن المشاهد ووصف الأمكنة ،كما تتميّز بتركيزها على العلم والعلماء ،والقضايا الدينية والمشايخ والفقهاء والمناظرات العلمية ،إضافة إلى الحديث عن المؤلّفات بذكر عناوينها والتّعريف بأصحابها.

كما تتميّز الرّحلة الجهادية عن غيرها من الرّحلات الأخرى بالطّابع الرّسمي بمعنى أنّ اتّخاذ القرارات لا يكون إلاّ من سلطة عليا ،وتتّخذ هذه الرّحلة صفة الجهادية كونها تتّجه نحو عدو كافر يكون قد اعتدى على ثغر من ثغور المسلمين ،أو وقف في وجه نشر الإسلام وهذه التّسمية هي تسمية إسلامية بامتياز،جاءت مقابلة لما كان يسمّى من قبل بالرّحلة الحربية.

فإنّ صفة الجهادية الّتي يعرف بها هذا النّوع من الرّحلات تضفي عليها صفة القدسية عند المسلمين من منطلق أنّها ترتبط بعقيدة المسلم،كما تتميّز الرّحلة الجهادية بطابعها العسكري الّذي يفرض سلطانه عليها وعلى جميع مكوّناتها من البداية إلى النّهاية،سواء تعلّق الأمر بلُغتها أو وصف شخصياتها،أو الحديث عن العدّة والعتاد فيها أو حتّى الشروح والتفاصيل الّتي نجدها في ثنايا صفحاتها،وبين مختلف أحداثها ومحطّاتها.

أما رحلة الحركة هي الّتي تتّخذ الطّابع الرّسمي ممّا يجعلها ذات أهداف ودوافع سياسية بحتة،وعادة ما يشبّهها الدّارسون بالغزوة أو المسيرة العسكرية،يقوم بها الحاكم ضدّ المارقين عن القانون أو المتمرّدين على السلطة المركزية ليتّجه نحوهم بجيوشه ويفرض القانون ليعيدهم إلى سلطته،

ولعلّ هذا يعتبر المؤشّر الأساسي الّذي يعطيها شرعية التسمية بالرّحلة ما دام الأمر فيها يتعلّق بالحركة والانتقال في الإطار الزماني والفضاء المكاني،الّذي يكون دون شك على أطراف الدّولة

وليس في عاصمتها،فهذه الرّحلة كغيرها من الرّحلات تقوم على بنية السّفر والارتحال خاضعة لنفس المعمار الّذي ألفناه في غيرها من الرّحلات والمتمثّل في الانطلاق والسّير ثمّ الوصول،ممّا يجعلها تتوفّر على ثالوث العناصر الأساسية الّتي لا تخلو منها أي رحلة،نعني بذلك :التقديم،المتن،الختام.

قبل القرن السادس عشر الميلادي كانت الحركة تطلق على الأعمال الجهادية خارج حدود السلطة ،أمّا فيما بعد فإنّ الرّحلة الحركة :"أصبحت تعني تلك العمليات الداخلية الّتي تنظّمها السلطة المركزية لإثبات سيادتها على جهة ما من البلاد ،ارتباطا بجدلية المركز الخاضع دوما لسيطرة الدولة ،والهامش المتمرّد لبعده عن أعين السلطان،وقد ارتبط بهذا التقليد مرافق السلطان بالإضافة إلى الجيش،وكتّابه الّذين يضطلعون بمهمة تسجيل هذه الحركة" (7) (أحمد بوغلا ،الرحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص،ص205)،الأمر في الحركة يرتبط ارتباطا وثيقا بسلطة حاكمة،ممّا يعني أنّ الهدف منها يكون محدّدا تحديدا دقيقا سواء تعلّق الأمر فيها باختيار الزّمان أو تحديد المكان،وعلى هذا الأساس فإنّ هذا النوع من الرّحلات يعتمد بالدرجة الأولى على خريطة التضاريس،ولا ينجز إلاّ بعد التخطيط والتحضير وتهيئة جميع شروط النجاح،ما يعني أنّها تشترك مع غيرها من الرّحلات من حيث قيامها على القصدية .

كما أنّ لرحلة قيمتيْن أساسيتيْن :علميّة وأدبيّة لأنّ الرحّالة ينطلق من الواقع حيث يكون لها تأثير على نفسيّته ومشاعره ،كمّا يجنّح أحيانا نحو الخيّال في سرد الرحلة لتأثير الشّوْقِ لدى القارئ ،ويدفع عنه الملّل من جهة أخرى ،إلى جانب هاتين القيمتين تأتي القيمة التعليميّة التي من خلالها يسعى الرحّالة إلى تقديم معلومات التاريخيّة ،الجغرافيّة ،الاقتصاديّة ،الاجتماعيّة والثقافيّة ،تكون بمثابة عوْن لكلّ عالِم في مجال اختصاصها.

أمّا الرّحلة الّتي سنتّخذها كنموذج هي رحلة داخلية أخذت نمطية الحركة بحيث قام بها الباي محمّد الكبير داخل بلاد "الجزائر،والّتي قادته إلى الجنوب الصّحراوي في إطار حملة واسعة مدروسة ومخطّط لها وذلك بعد تولّيه الحكم لإصلاح شؤون الرّعية ،والسّهر على مصالح العباد وتنظيم البلاد رغبة منه في أن يبرز شخصيته ويمتّن أركان حكمه،أمّا مقيّد هذه الرّحلة ومدوّنها فهو أبو العباس المشهور بابن هطال التلمساني .

3-لمحة تعريفية لمضمون رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري:

كان لمحمد الكبير مواقف مشرّفة وقدرة عالية في القيادة وسياسة الناس إضافة إلى علم لم ينكره عليه أخد ،وهذا ما سهّل عليه الارتقاء في المناصب الحكومية السياسية منها والعسكرية حتى وصل إلى رتبة باي الناحية الغربية عام 1192هـ.

"وبمجرد جلوسه على كرسي الحكم" **(8)** (أحمد بن هطال،رحلة محمد الكبير،ص 18)، ظهر بصورة الحكيم الذي كرّس حياته من أجل رعيته وبدأ نشاطه الإصلاحي والتنظيمي من خلال تنقّلاته داخل البلاد،وتعتبر غزوته في اتجاه القبلة" نحو الجنوب " من أشهر رحلاته الرسمية الداخلية. لقد قادته هذه الرحلة نحو الجنوب الصحراوي الجزائري بغرض إخضاع هذه المنطقة للسّلطة المركزية إذ أنّ الكثير من القبائل في ذلك الوقت كانت غير خاضعة لسلطة الدولة العثمانية ،كما أنّه يوجد الكثير من أعراب المنطقة متمرّدون ،يفضّلون العيش أحرارا على العيش تحت سلطة الغير. فجهّز لهذا الغزو جيشا عظيما،ونزح به من "معسكر" مرورا بجبل "عمور" و"البيضاء" و"آفلو" و "الطويلة" إلى أن وصل "الأغواط" ودخلها بقوة. بحيث جعل المنطقة والمناطق المجاورة لها تنقاد له وتخضع لسلطته عام 1199هـ/ 1785م.

وتتّخذ هذه الرحلة أهميتها التاريخية من أنّها "تتضمن أخبار جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية ولا يستغني عنها"**(9)** (أبوالقاسم سعد الله ،أبحاث و آراء في التاريخ ،ص 280) الدارسون في تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية.

لقد شملت الرحلة مضمونا استهلّه الأديب و الفقيه أحمد بن هطال التلمساني رحلته بحمد لله ،والصلاة والسلام على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وقد اختار تمهيدا عالج فيه فضل علم التاريخ "أمّا بعد فإنّ فضل علم التاريخ من أجلّ العلوم قدرا،وأكملها محاسن وفخرا ،فهو أحد ما يطلق عليه علم العربية. كان أحقّ ما تنفق فيه الذخائر السنية. وتصرف إليه المهج الزكية..." **(10)** (أحمد بن هطّال،رحلة محمد الكبير ،مصدر سابق ،ص 34.) ،وكما ذكر غرض أحمد بن هطال من تقييد الرحلة وقد أوجزه في رغبته ،لخدمة الباي محمد الكبير مبرزا في ذات الوقت خصاله وصفاته مشيرا في ذلك إلى أنّ الحدث الّذي من أجله قامت الرحلة هو حدث تاريخي هام يتوجّب تسجيله. مرورا في ذلك إلى تبرير الغزو الذي قام به الباي محمد الكبير ومتحدّثا عن القبائل المراد غزوها كقوله :"كأنّها أمم أبقت من أهلها ،أو حرة نشرت من بعدها. فشمّر لها عن ساعد الجدّ عازما على ردّ ما بها من النفار والصدّ"**(11)** (المصدر نفسه،ص 36) .وبعدها يتعرّض لموضوع الرحلة منذ يوم الخروج وتركيبة الجيش وخططه العسكرية ومصير القبائل المغزوّة الأخرى وحصاره لمنطقة الأغواط ،وكذا الغنائم التي استولى عليها جيش الباي من المناطق التي عصى فيها أهلها الباي وخُدعَتهم له وتمرّدهم عليه ،وكيف حصّن الأغواطيّون بلدتهم فلم يستطع جيش الباي اقتحامها خوفا من الفخاخ الموضوعة ،وغيرها من الأحداث التي اعتمدها ابن هطال من خلال معاينته لأحداث الرحلة ومسارها أو من خلال ما استقاه من أخبار عن أشخاص يثق بهم أو صادفهم أثناء الرحلة.

كما أنّ الرحلة تُعرّفنا بأحوال القبائل الجزائرية وعاداتها وأنماط عيشها بما في ذلك المدن ،القرى ،الأرياف والقبائل فكلّ ذلك حقّقته الرّحلة من ناحية كوثيقة تاريخية ،فإنّ الرحلة في حدّ ذاتها تعدّ مصدرا من المصادر الهامة في تلك الفترة الزمنية من تاريخ الجزائر بلا منازع ،ومن ناحية أيضا تعتبر نصّا أدبيا وصفيا لمجريات الحملة العسكرية التأديبية التي قادها الباي محمد الكبير،فقد جمعت بين النثر و الشعر ،حيث طغى عليها الطابع النثري على الشعري الّذي كان مقتبسا ،ووصلت أبياتها إلى ثمانية وتسعين بيتا وُظّفت جميعها في مدح الباي.

لقد قامت الرحلة كغيرها من الرحلات على ثلاثة عناصر **(12)** (طاهر حسيني،الرحلة الجزائرية في العهد العثماني ،ص 244.):

- **التقديم** :ويمكن أن نتوقف على تقديمين:
- ✓ **الأول** :تقديم لناسخ الرحلة الذي لا يعدوا أن يكون مدحا لابن هطال وتعريفا به.
- ✓ **الثاني** :فهو تمهيد ركزّ على قيمة التاريخ ومحددّا في نفس الوقت الهدف من كتابته للرحلة.
- **المتن** :اقتصر فيه ابن هطال على عرض مجريات الرحلة بموضوعية.
- **الختام** :تمّت فيه الإشارة إلى نجاح المهمّة ونيل المراد من الرحلة وكذا تحقيق العودة مع ذكر التاريخ باليوم و الشهر.

4-لمحة تعريفية لصاحب الرحلة ابن هطال التلمساني :

هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني،كان فقيها،وأديبا كبيرا ،حيث أنه عاش فترة خصبة من القرن الثامن عشر. وقد أبرز من خلال تقرير رحلته ،أنه مستشارو دبلوماسي و محارب من خلال ملازمته للباي محمد بن عثمان الكبير(1779-1797)، الذي اشتغل ببلاطه منصب كاتب السر الرئيسي ،و يعد هذا المنصب مرصدا لجمع أخبار البايليك السياسية و العسكرية من شهود العيان ،و التحقيق فيها. فقد كان الناطق الرسمي باسم حكومة الباي محمد الكبير في داخل الجزائر و خارجها.

فقد حدثنا أحمد بن علي بن سحنون في كتابه«الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» أن محمد الكبير-عندما كان يستعد لفتح وهران- وجه كاتبه أحمد بن هطال مع قاضي المحلة ،مصحوبين بهدايا إلى سلطان الغرب الأقصى ،ليسمح لهما بشراء ما يحتاج إليه الباي من أسلحة حربية .و من هناك ،توجه أحمد بن هطال إلى جبل طارق ،حيث وجد -في انتظاره-قناطير و نصف قنطار من البارود قد اشتراها الباي من الإنجليز،فعبأها و عاد بها إلى بلاده.

و بعد وفاة الباي محمد الكبير،ظل ابنه عثمان باي يشغل المنصب نفسه الذي كان مشغولا به إبان حياة أبيه ،ثم لما توفى الباي المذكور،أصبح ابن هطال كاتبا للباي مصطفى بن عبد الله العجمي رابع بايات الإيالة الوهرانية .حيث استشهد ابن هطال في معركة وقعت بين الأتراك و ابن الشريف الدرقاوي وأنصاره و ذلك في أوائل ربيع الأول سنة(1219ه) . بحيث وقعت معركة في مكان يقال له «فرطاسة» يقع بين «مينا» و«العبد» ،و قد انتصر –في هذه المعركة– ابن الشريف الدرقاوي وأنصاره انتصارا عظيما،فقتل عدد كبير من جنود الباي مصطفى .و من هؤلاء القتلى،كاتباه الحاج أحمد بن هطال و أبو عبد الله محمد الغزلاوي .

5–أدبية الرحلة:

تعتبر رحلة أحمد ابن هطال التلمساني وثيقة تاريخية ونلمح ذلك من خلال التواريخ التي تزامنت مع الأحداث هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى تعد نصا أدبيا وصفيا لمجريات هذه الحملة العسكرية التأديبية التي قادها الباي محمد الكبير،فقد جمعت بين النثر الغالب عليها بما أنها نص سردي ويظهر هذا من خلال قوله:"**فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول بقومه وعسكره من«المعسكر»التي هي محل وطنه. و نزل«واد الزلامطة»وبينه و بين المعسكر ست ساعات...**" **(13)** (أحمد ابن هطال ،رحلة محمد الكبير،ص36).

وقال أيضا:"**وبالغد ارتحل ونزل على أربع سوائع في موضع متوسط بين«عين ماضي»و«تاجموت وأمسناج»إلا أنه إلى«تاجموت»أقرب ،ويقال له«أمسناج» ،وهو موضع منبسط ،ذو مياه وعشب...**" **(14)** (المصدر نفسه ،ص65) من خلال ما قاله ابن هطال نجد أنه يقوم بسرد الأحداث بأدق التفاصيل بأسلوب وصفي.

كما نجده قد وظف إلى جانب الأسلوب الخبري الأسلوب الإنشائي الذي نلمحه في قوله:"**ليت شعري هل وجد في زمانهم!..**" **(15)** (نفسه، ص72) وأيضا في:"**فقال مخاطبا لذلك:يا خراب أين أهلك؟...**" فنلاحظ أنه وضع النداء و أسلوب الاستفهام و كذلك مثل:"**يا سيدي إن جعلتنا عتقاءك:فامنن على هؤلاء القوم ،واجعلهم أرقاءك ،وادخر أجر عفوهم عند الله تعالى...**" **(16)** (نفسه،ص61)

وفي آخر هذه الرحلة اختتم ابن هطال بقوله:"**كمل تقييد هذه الأوراق عشية يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر الله«ذي القعدة»سنة اثنتين بعد المائتين والألف...**" **(17)** (مصدر سابق ، ص93).

ونلاحظ أنه ذكر تاريخ نهاية الكتابة باليوم والشهر والسنة. كما أنها تتضمن أشعار مقتبسة و التي وصل عدد أبياتها ثمانية وتسعين بيتا ووظفت جميعا في مدح الباي من خلال ذكر محاسنه وفضائله على الناس والبلاد وكذلك لأجل نيل رضاه.

ونلمس هذا من قول ابن هطال:«قد أحسن الفجيجي في قصيدته"الفريد في تقييد الشريد وترصيد الوليد" ،حيث قال:

أَخي هل ترى الأيام تجمع شملنا ونحن على جرد سراع نطالع

لدى كل ربوة وأجراس طيرنا لها زجل من فوقنا وقعاقع

وكانت شيمة سيدنا كقوله(**18**) (المصدر نفسه،ص67-68):

"**فأصبح سلما للورى يطأ الثرى وتنظره فوق الثريا القنابع**"

وعندما قال:«مدحه بقصيدته الهمزية التي دلّت على كمال الممدوح وفصاحة وبلاغة«المادح» التي أولها(**19**) (مصدر سابق،ص72):

" **بدأت بحمد الله في معرض الثنا وفي الافتخار بهجة وثناء**

وبعد فإن قصدي في النظم شائع إلى مدح من رأى به البصراء "

وهي قصيدة طويلة وتزيد على اكثر من خمسين بيتا،حيث أنّ هذه القصيدة من بحر الطويل المقبوض العروض المحذوف الضرب.

كما نجده أنه ذكر أن السيد الحاج أحمد بن السيد محمد بن علال القرومي قد مدح الباي محمد الكبير بقصيدتين ،أولها(**20**) (المصدر نفسه ،ص79-80):

"**أمير له في الناس عدل وسطوة فعامله في تلك يرفع بالجر**

لقد دوّخ الارض البسيطة طوله لصاحب مرمى الحق أو صاحب الجور"

و هذه القصيدة الرائية ذات العروض المقبوض و الضرب التام من البحر الطويل،أما القصيدة الثانية ،قال فيها(**21**) (نفسه ،ص84-85):

"**لما التقيت بوافد الحسن البهر يزجي المطايا مغربا في عسكر**

خاطبته أين المسير فإنني أبصرت ما أدهى وأدهش منظري"

وهذه القصيدة من بحر الكامل،صحيح العروض والضرب معا. ونجد كذلك في آخر الرحلة أنه عندما نال الباي غرضه من الحملة العسكرية التي كانت نحو الجنوب الصحراوي الجزائري عاد مع جيشه بغنائمه فاستقبله الناس و الرعيّة أحسن استقبال حيث قال(**22**) (مصدر سابق ،ص91):

"وكانوا يريدون أن يفدوه بالأهل والمال وذكر وروده-عندهم- أحلى من العذب والزلزال ،وأحق الناس بالتقرب والمال ،وأولادهم يقول من قال:

لعمرك قد سرت بلاد المغرب سرور ضميء بشر بالمشارب

وأنسها من مرتع الخصب يحدث أن الروض ليس بعازب

و هذه الأبيات من وزن بحر الطويل المقبوض العروض و الضرب معا .

من خلال هذه النماذج نجد أن أحمد بن هطال التلمساني قد أبرز صورة الأدب في رحلته بطريقة فنية مميزة و هذا ما أعطاها مكانة خاصة عند الأدباء والدارسيين.

6-جمالية البناء الفني لرحلة محمد الكبير :

6-1-الشخصيات:

انطلاقا من دراستنا و اطلاعنا على هذه الرّحلة تبيّن لنا أنّ هناك ثلاث شخصيات لابد من الوقوف على تحديدها و إبراز دورها:

6-1-1- الشخصية المركزية:

من الطبيعي ان نتحدث عن الشخصية في الرّحلة ،وذلك لأنّها تلعب الدّور الأبرز فيها ،والشخصية الأساسية هنا هي تلك التي لها الأثر الكبير في توجيه أحداث الرّحلة ،وهي شخصية محمد الكبير كونه المخطط والمنفذ والمتبع والموجه ،فقد كان حضور هذه الشخصية بصفتها السياسية والعسكرية في كلّ محطّات الرّحلة ،حيث نجد مركزية هذه الشخصية قد تجلت بأفعالها لا بأقوالها ،ذلك أن النقاد و الدّارسين وخاصة المهتمين بفن الرحلات يتفقون جميعا :"إنّ من يمارس الفعل في الحركة شخصية مركزية ،وتترك السّرد لشخصية مرافقة تأتمر بأوامر الشخصية الأولي عبر محطات الطريق المادي والسّردي أيضا" **(23)** (عبد الرحيم مودن ،الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر،ص 85.) ،وعليه فان إبراز قيمتها وأهميتها اهتم به الشارد ابن هطال ،باعتماده على إبراز الصورة المثالية لبطل هذه الرحلة في قوله :" قامع المبغضين،ومدوخ المارقين،من جمع الله له خصال الشرف والمجد ،وموجات الشكر والحمد : محل الجلال والعظمة والجود ،المخصوص بنصر الاواء والبنود،ذا الأيادي العميمة والمنن العظيمة والسياسية السديدة ،والنعم المديدة ،الذي انعقد على تفضيله الإجماع ،وجعل من ذلك اليمن والسعد في درجة الارتفاع ،كهف المسترح والعاني ،الملحوظ برعاية الله السيد محمد باي ابن مولانا السّيد عثمان باي...." **(24)** (ابن هطال التلمساني ،رحلة محمد الكبير ،ص 34) .

لقد استطاع ابن هطال من خلال كلامه الاستفتاحي أن يضع هذه الشخصية المركزية في أعلى المراتب ،وفعلا تمكن من إعطاء كل الصفات التي تهّيئ المتّلقي وتجعله ينتظر أحداثا تنبئ عن شخصية مركزية ،تبدو في صورة البطل المتشبّع بالثقافة الدّينية ،إلى جانب ظهوره مند البداية بصورة العسكري الذي لم تمنعه هذه الصفة من تقبل هدايا البعض ممن توشّموا فيه الخير من أهل

دائرته :"فبعض أهل دائرة سيدنا " الباشة" – نصره الله– بعث فرسا أنثي من عناق الخيل محبّة و رغبة في سيّدنا "**(25)** (المصدر نفسه،ص 39) ،كما تجلت في هذه الشخصية صفات القائد المسلم و المتميز بالإنسانية فتجده متشبعا بها وذلك حين نبّه :"أنّ المرأة لا يتعرض لها ،ولا يأخذ احد شيئا من لباسها،صونا لحرمتها... فأمر بإطلاق صراح الشيوخ والصبيان وترك الكهول... كان أكثر ما أدركته الرقة حين رأى شيخا كبير السن من درية بعض الصالحين انه لا يقدر على الشيء ،أمر خدامه أن يحملوه..."**(26)** (نفسه ،ص 47).

كما أوصى جيشه بعدم قطع الأشجار والنخيل و أن من يقطع شجرة أو نخلة فالله حسبه ،وهذا ما يدل على إنسانيته وأخلاقه الفاضلة.

ومن الملاحظ أيضا على هذه الشخصية العظيمة أنها لم تبرز في هذه الرحلة بصفاتها الجسدية ،كطول الجسم و لون البشرة و لون العينين ،وإنما برزت بصفتها المعنوية التي تنبأ بقيمتها كالشجاعة والقوة والسماحة والعلم وغيرها من الصفات .وقد غلب ضمير الغائب في هذه الرحلة،لأنه يعتبر من أشهر الضمائر تداولا في السرد قديما و حديثا ،حيث الدكتور عبد الملك مرتاض يصفه ب " سّيد الضمائر السردية الثلاثة و اكترها تداولا بين السرّاد ،وأيسرها استقبالا لدى المتلقين ،وأدنا إلى القيام لدى الفقراء "وتوظيف ضمير الغائب للدلالة على الشخصية المركزية في سرد الإحداث ،هو مدح بطريقة غير مباشر،وبذلك تبرز شخصية الباي محمد الكبير شخصية عظيمة ،تذكرها أفعالها و يحكي عنها تاريخها ،ويمجدها غيرها.

6-1-2- شخصية الأخر:

و من خلال اطلاعنا على هذه الرحلة تثبت لنا أن هناك شخصيات أخرى و التي يمكن تقسيمها إلى قسمين اثنين على الشكل الذي يوضحه الجدول التالي:

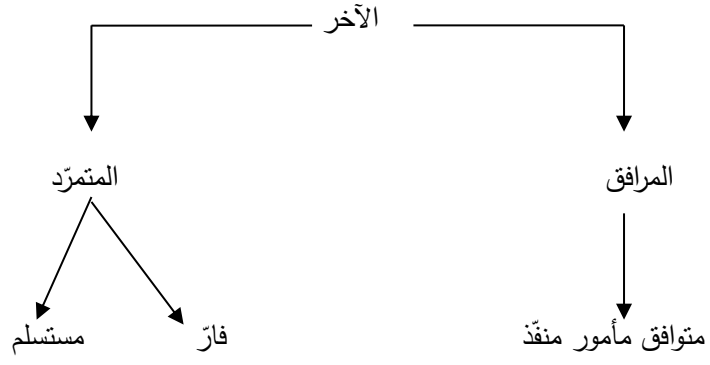

فقد مثل الآخر المرافق هنا أفراد الجيش حيث يمكن اعتبارهم شخصية جماعية ،ونجدهم على اتفاق مع الشخصية المركزية. حيث ظهروا في هذه الرّحلة بصورة المجاهد الذي ينفد الخطة و يستجيب للأوامر ويسعي للانحصار ،كما نجد في هذه الرحلة الآخر الذي جاء بصورة الفرد المعروف باسمه ونسبه ،وهنا يتعلق الأمر بمن " كان مصاحبا له في هذه المحلّة قرة نظره ،وعضد ساعده ،صاحب الفخر و الامتنان ،جامع شتات الفضل والإحسان ،وارث مجده ابنه السيّد عثمان..."(**27**) (المصدر السابق ،ص43).

أمّا بالنسبة للآخر المتمرد و العدو و فتجلّياته لن تكون إلاّ في صورة الفار المستغني عن أملاكه و موطنه ،و يظهر هذا من خلال قول ابنه هطّال :"فلما رآه أهل تلك القرية ،علموا أنّهم لا قدرة لهم و لا طاقة لملاقاته ،فخرجوا منها بأجمعهم ،و لم يأخذوا شيئا... و تركوها خاوية على عروشها...فدخلها من غير حصار عليها و لا قتال"(**28**) (المصدر نفسه،ص 51) ،فالفرار يعني قوة السلطة و أنّ الآخر قد خدم بصفة أو بأخرى الشخصية المركزية.

6-1-3- شخصية السّارد:

و نعني بها مؤلّف الرّحلة و مقيد أوراقها أو بعبارة أخرى كاتبها الرّسمي ،حيث كان احد أعوان الباي محمد الكبير في رحلته هذه التي زحف من خلالها إلى الجنوب الصحراوي ،بغرض إخضاع هذه المنطقة للسلطة المركزية و قصد تأديب المتمردين و بطبيعة الحال هذه الشخصية هي شخصية ابن هطّال التلمساني و الذي يعتبر من اقرب المقربين للباي محمد الكبير،كما كان على توافق قام معه ،فابن هطال و بالرغم من انه كان مرافقا و في بعض الأحيان مشاركا في أحداث هده الرّحلة إلا انه كان حريصا علي منع نفسه من الظهور،و ذلك رغبة ليترك مجال الأفعال يقتصر على الشخصية المركزية و إظهارها في صورة البطل الأوحد ،و تلك هي طبيعة السارد في هذا النوع من الرحلات باعتبار أن "سارد الحركة مجرد شاهد يحكي من خارج الحكاية بالرغم من وجوده في ركاب الحركة ،فهو لا يحكي إلا من خلال ذات أخرى تعيش حكايته فعل و قولا"(**29**) (عبد الرحيم مودن ،الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر،ص 100.).

كما نجد ابن هطال قد مال إلى الاختصار مبتعدا عن التعليق و الشرح ،حيث أكد في بداية سرده لإحداث الرحلة انه سيكون في حديثه"مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة" (**30**) (بن هطّال التلمساني ،مصدر سابق ،ص 36) .فهو كان شديد الحذر و متحفظا بعض الشئ في بعض المواطن التي تتطلب التعليق او الرفض و القبول ،و هذا ما عزز مكانته و وطّد علاقته بالباي محمد الكبير بالرغم من أن هذه العلاقة كانت علاقة حاكم بمحكوم مما يجعله كغيره مأمورا و منفذا للأوامر.

6-2-بناء المكان في رحلة الحركة:

تجليات المكان في هذه الرحلة ،لا يمكن أن تكون بصورة واحدة فهي متفاوتة ،ومتبّاينة ويظهر تبّاين الأمكنّة من حيث درجة اهتمام السّارد بها ،تبعا لأهميّتها الإستراتيجية من حيث الموقع والقيمة بالنسبة للرحلة وأهدافها. فهناك عدد قليل من الأماكن ألّتي تجاوزها ابن هطال ولم يعطيها اهتماما ،ذلك لأنّ الرحّالة تجاوزها وذلك لعدم أهميتها،كذا لأنّها لا تدخل ضمن خطته المدروسة.

من نماذج هذه الأماكن التي قدّمها ابن هطّال كمحطات ثانوية ،في قوله:"وارتحل من القطيفة ومرّ بالبيضاء فأمر الناس أن يسقوا دوابهم... ثم جاوزها ونزل بمكان قريب منها ثم ارتحل ونزل "الحليات" وارتحل فنزل "مركانة" على يمين " واد سبقاق" بنسبة الذهاب جهة القبلة"**(31)** (المصدر نفسه ،ص 43.). في هذا المقطع نلاحظ أنّ السّارد عبّر على مرور الرحّالة على مجموعة من الأماكن ،دون أن يقيم فيها أو يهتّم بها وبالتالي لم يكن للسّارد كذلك أيّ اهتمام بها في متتاليات السرد. مقابل ذلك تكلّم السّارد عن الأماكن والمدن التي اعتبرت كعلامات بارزة بأهميتها وقوة حضورها عبر مختلف محطّات هذه رحلة الحركة ،ومن ذلك:

6-2-1-معسكر (مدينة المنطلق) :المقصود بها مدينة "معسكر" الموجودة بغرب الجزائري ،أهميّتها تستمدها من عمق التاريخ منذ العهد الرّوماني حتى اليوم.

ترتبط هذه المدينة في الرحلة بحرف الجرّ"من" ،ما يعني أنّها هي المنطلّق الّذي انطلقت منه الرحلة ،وهي من المدن الّتي تخضع للسّلطة المركزيّة ،فهي عاصمة بايليك الغرب الجزائري لا تمثل هدفا ،فهذا من الأسباب الّتي جعلت الحديث عنها قليلا ،وحضورها في رحلة محمد الكبير لم يأخذ حيّزا كبيرا ،ففي بداية الرحلة لم تذكر إلاّ بجملة واحدة ،"من المعسكر التي هي محل وطنه ،فنزل "داود الزلامطة" ،وبينه وبين المعسكر ست ساعات" **(32)** (مصدر سابق، ص 36.) ،إلاّ أنّ الأمر اختلف في نهاية الرحلة بعد انجاز المهمة والعودة ،فقد أصبحت هذه المدينة تمثل نقطة الوصول بعدما كانت تمثل نقطة الانطلاق.

هذا الانقلاب في النظرة للمدينة ،سيكون له أثر في تغيّير وجهة النظر لها ،فقد صارت محّطَ أنظار الأهالي ،"ثم جعلت الناس تَردُ عليه من "المعسكر" مثنى وفرادى ،وجماعات"**(33)** (المصدر نفسه ،ص 90). وهكذا عمّت الاحتفالات مدينة "معسكر" حيث أجهد السّارد في إبرازها لتصبح رمزاً ،حيث انطلق محمد الكبير غازيّا ،وإليها عاد غانما.

كما يبدو أنّ ابن هطّال أضاف على أحداث الرحلة أبيات من الشعر**(34)** (نفسه ،ص 91):

"لعُمْرِكَ قَدْ سرْتَ بلاَدَ المَغَارب سُرُورَ ضَميئ بشّرَ بالمَشَارب

و أُنْسُهَا من مُرْتَع الخصْب يُحدّث أنّ الرَوْضَ لَيْسَ بعَازب
قَدْ اسْتَشْعَرْتُ رُوحَ الأمَاني رَوَاحُهَا وَ شَامَتْ بُروقًا ألمَعَتْ بالسَحائب
و عنْد طُلُوع البَدْر لَيْلاً تَسَابَقَتْ إلَيْه تُحْيّي رَاكبًا بَعْدَ رَاكب"

قد وظّفه السّارد لقوّة تأثيره ،وإقناعه للمتلقي ،فقد جاء في خدمة الشخصية المركزيّة في خانة إرضائها ومدحها.

6-2-2-مدن العبور :بما أن هناك مدينة أطّلقنا عليها صفة نقطة المنطلق ،فإنّ هذا يفرض أنّ تكون هناك مدن للعبور مادام الأمر يتعلق بحملة عسكرية تمثل جيشا بجميع مكوناته من قادة ،عدة وعتاد ،ينتقل عبر محطات محددّة وهذه الأماكن تمثلها مجموعة من المدن و المداشر فوقف عندها الناسخ تارة بالإشارة و تارة بالوصف و هذه الأماكن اتخذها الجيش للراحة و استعادة الأنفاس ومراقبة التنظيم ،و أما عن أماكن العبور هي عديدة و متنوعة من قرى و جبال و وديان... و نظرا لهذا التنوع سيكون حديثنا مركّزا على المدن المهمّة و أهمها نّجد:

- ✓ **دير الكاف** : تأخذ أهميتها من أنّها كانت الموقع الّذي وضع فيه الباي محمد الكبير خطته في هذه الغزوة و التي تبيّن فيها أنّ الجيش قسّم الى قسميْن بحيث قسم يكمل المسير و الآخر يبقى ليحمي ظهرَ الأول كما يوضحه الرسم التالي .**(35)** (ينظر:الطاهر حسيني،الرحلة الجزائري في العهد العثماني،ص 264) :

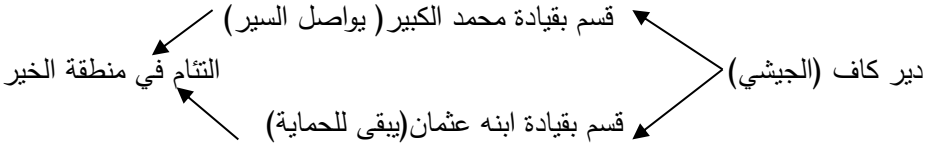

- ✓ **البيضاء** : وصّلها محمد الكبير بعد ثمان ساعات و هذه المدينة مبّرمجة للراحة و التزوّد فقد تكلم السارد عن منابعها و آبارها الكثيرة ،ففي هذه المدينة. " استسقت الناس وعلقت دوابها" **(36)** (المصدر السابق، ص 37.) ،ونفس ما قيل عن هذه المنطقة يقال على "اللفيحة" حيث نزل فيها ليلا و هذا دلالة على أنّ المواطن آمن و تنعدم فيه الخطورة.
- ✓ **الخضراء و تأويله** : تمثل صورة المنطقتان المغلوبتان على أمرهما حيث أنّها وقعت بسهولة في يد جيش الباي محمد الكبير "و هما مدينتان كل واحدة لها بساتين كثيرة ،وماء

غزير و مزارع... شرعوا في نهبها"(**37**) (المصدر نفسه ،ص40) ،فنلاحظ أنّ كلمة "نهبهما" يعني أن المنطقتيْن تم الاعتداء على أملاكها ،وإضافة إلى هذا تم إثقال أهاليهما بالضرائب.

✓ **الخير** : يبدو أنّها مدينة صغيرة إلاّ أنّها ذات أهمية كبيرة من كونّها المكان المتفق عليه لإعادة التئام الجيش بعد أن انقسم إلى قسمين لدواع أمنية ،و بما أنّها اختيرت لعملية كهذه ،فلا بُد أن تكون منطقة مناسبة وتتوفر على ما يساعد على التجمع حيث قال ابن هطال:"فبات الناس على هناء" (**38**)(نفسه ،ص 42) .

✓ **الدبداب** : و تسمى أيضا "أبو شكوة" حيث دقّق ابن هطّال في وصفها فقال : "وكما يسمي الدبداب يقال له : أبو شكوة أيضا. و "الكرط"..."(**39**) (مصدر سابق،ص 48) ،من خلال تحديد الأبعاد و المسافات يعني أنّ أهميته لا تكمن في ذاته بل تكمن في علاقته مع غيره من الأماكن المحيطة به شرقا و غربا ،شمالا و جنوبًا ،و هذا ما يجعل هذا الوصف يلامس التحديد العسكري للأماكن فهو يخدم الجانب العسكري في شخصية محمد الكبير.

فحتى يكون الحديث عن مدن المسار مكتملا لابد من الإشارة إلى العوائق و المخاطر التي اعترضت هذه الحملة في مختلف المحطات ،و هي أمور تعتبر طبيعيّة مادام الأمر يتعلق بالرحلة فهي تحضر فيها المصاعب سواء تتعلق بالعوائق البشرية أو بالعوائق الطبيعية "وأصابنا الثلج في الطريق..."(**40**) (المصدر نفسه، ص 76.) ،الظاهر أنّ هذه الأخيرة كانت حاضرة في رحلة الباي محمد الكبير.

6-2-3-الاغواط (المكان المتمرد/ الهدف) : هي المدينة التي كانت لها أهمية قصوى باعتبارها المكان المتمرد التي اختبرت من خلالها قوة السلطة ،و قد أخذ الحديث عنها و عما فيها ،و عن المناطق القريبة منها ذات الصلة بالأحداث حيّزا كبيرا في الرحلة فهو المكان الهدف و ما يؤكد أهميّة هذه المدينة ،هو حجم التحضيرات الّتي سبقت الغزو ،و القوة الهائلة التي أعدها الباي محمد الكبير من أجل إخضاعها لسلطته ،الأمر الذي دفع علمائها على حملهم لصحيح البخاري معهم طالبين الأمان و راغبين في طاعته و أن يكونوا من رعيته مقدمين لأجل ذلك"مائة خادم و خمس آلاف سلطاني و مائة ثوب و أربعة أفراس"(**41**) (نفسه ،ص 51.) ،فكان الرّد بالقبول و الاهتمام و حسن الاستقبال من قبل الباي.

و كنتيجة حتمية للغزو ،و بعد أن كانت المدينة رمزا للمكان المشيد بقلاعة وأبراجه وحيطان حمايته ،صارت بعد الغزو مكانا مهدما ،كسرت فيه الجدران و حطم فيه البنيان ،و محيت فيه الآثار،تمهيدا لإعادة تشكيله بصورة جديدة تظهر في ذلك الاستجابة لـ "طموح الذات السلطانية التي تعمل عادة على تكوين مجموعة من العلامات لتثبيت ذاتها لابراز رموزها"(**42**)(أحمد بوغلا،

الرحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص ،ص 210.) ،و بالتالي تكون البصمة الأكبر فيه للشخصية المركزية التي تمثل السلطة الحاكمة ،فيكون ذلك بمثابة اللوحة الإعلانية التي تؤكّد إخضاع المكان و إنجاز المهمّة.

6-2-4-المكان المتحرّك (محلّة) : يطلق وصف المكان المتحرّك عادة على سفينة أو كل ما هو متحرك و قد اتخذ نفس هذا الوصف "للمحّلة" .و من خلال الإطّلاع على رحلة الباي محمد الكبير تجلى لنا بوضوح أنّ المحلة حاضرة في الرحلة من البداية إلى النهاية ،ذهابا و إيابا،و هذا التنقل دون شك يجعلها أكثر ارتباطا بالأحداث ،و لكنّ رغم ذلك فإنّ التحدث عنها في هذه الرحلة لا يتعدى في تحديد أماكن نزول الشخصيّة المركزيّة للاستراحة أو التزوّد أو التنظيم أو التوزيع المهام.

6-3-بناء الزّمان في الرّحلة:

من المعلوم أنّ الرّحلة هي فن يرتبط ارتباطا وثيقا بالواقع ،و لهذا نجدها تحتفي بما يُعرف عند الدّراسيين بالزّمن الطبيعي ،باعتبارها تسرد في الغالب أحداثا واقعية ،كثيرا ما تسيطر عليها الأحداث التاريخية التي يكون الرحالة قد شارك فيها ،أو كان شاهدا علي وقوعها.

و لا خلاف بين النقّاد أنّ الزّمن في الفنون السّردية ،و كذلك في الرّحلة و هي واحدة من هذه الفنون ،يعتبر من أهمّ العناصر التي تتشكل منها ،إذ تساعد على التنظيم أحداثها و ترتيبها وتأطيرها في الإطار الّذي يضفي عليها الواقعية ،و يكسبها الصّدق الذي يعتبر الهاجس الأوّل للرحّالة ،فالرّحلة تحرص عادة على التّموقع داخل الزمن التّاريخي (الموضوعي) مادامت الرّحلة تاريخا لفترة محدّدة من فترات التاريخ...**(43)** (ينظر:عبد الرحمان مودن ،الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر،ص 175) .

فنجد الرحّالة جميعهم أو من ينوب عنهم في كتابة رحلاتهم ،يعمدون مند البداية إلى التّحديد الدّقيق باليوم و الشهر و السّنة ،و في بعض الأحيان بالوقت و السّاعة لنقطة بداية الرّحلة حتى نهايتها ،و هذا ما وقفنا عليه في هذه الرّحلة التي يسرد أحداثها احمد بن هطّال التلمساني حيث قال في بدايتها :"فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول"**(44)**(المصدر نفسه ،ص 37.) ،و في نهايتها قال :"و كان دخوله يوم الأربعاء من ربيع الثاني قبل وقت العصر في أول الساعة الثامنة"**(45)**(المصدر السابق،ص 100).

6-3-1-زمن الحركة و عين السّلطة:

تميزت هذه الرّحلة (الحركة) عن غيرها من الرحّلات الأخرى ،بأنّها أُنْجزَتْ في إطار حملة واسعة مدروسة و مخطّط لها ،كونها رحلة رسمية تقوم بها السلطة حاكمة تسعي دائما لان تظهر

بالصّورة الايجابية ،و عليه فانّ كلّ شيء فيها يكون مدروسا و محسوبا ،و بخاصّة الزمن ،حيث نجد كاتب هذه الرّحلة قد تعامل معه بوعي تامّ ،و بأسلوب جعله يبرز في المقام الأول ،و ذلك لارتباطه الشديد بتحركات الشخصية المركزية و تنقّلاتها ،حيث نجد السّارد محافظا على تلك المكانة التي تجعله في خدمة السّلطة ،من خلال تعامله مع الشخصية المركزية الممثلة لهذه السلطة ،بطريقة دقيقة أثناء عملية التوثيق المصبوغة في كثير من الأحيان بالمجاملة ،و على هذا الأساس نجده دائما يعمل على تسجيل أفعال السّلطان و حركاته داخل الحركة ،بوعي زمني كبير يجعل أحداث الحركة و تحرك السلطان مؤطرين زمنيا...(**46**)(ينظر:أحمد بوغلا ،الرّحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص ،ص 299.). و هذا التأطير الزّمني فرض على ابن هطّال أن يجعل الزمن من اهتماماته الأولي ،و قد تعامل معه في الرّحلة تعاملا خاصّا حيث ذكر اليوم بصباحه او مسائه ،بشروقه او بغروبه و في كثير من الأحيان يربط بداية السيّر أو النزول بأوقات الصّلاة ،و هذه علامة دالة على أن الظاهرة الدينية لم تفارق الحركة.

6-3-2- زمن الحركة و عين السّارد:

لقد تجسد اهتمام بن هطال بالزّمن من خلال حرصه على اعتماد التتابع و التالي في ذكر الأحداث و الوقائع ،و ذلك بطريقة بسيطة مند اليوم الذي بدأت فيه هذه الرحلة فواقعية هذه الأحداث ما كانت إلا لتكون متسلسلة تسلسلا خاضعا للترتيب الزمني.

و كلّ هذا يمكن ملاحظته من خلال تجلياته في الرحلة كقوله:"فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول... و أصبح مرتحلا يوم الجمعة ،و نزل واد "العبد"...و أقام هناك بالغد لكمال تقسيم العلف...و ارتحل يوم الأحد... و في يوم الاثنين ترك المحلّة...و ركب مساء يوم الاثنين وقت المغرب..."(**47**)(ابن هطّال التلمساني ،المصدر السابق ،ص 37-38.)."

و الملفت للانتباه في هذه الرحلة الحركة أنّ السارد لم يكتفي بالتحديد اليومي ،بل تعدّى ذلك لتحديد مدة الإقامة في المدن و القرى ،و تقدير المسافات بينها بالساعات ،و ما ذلك إلا مظهر من مظاهر الاهتمام بالزمن ،الذي تتميز به الحركة و الرحلات الرسمية على غيرها من الرحلات الأخرى ،و هو الأمر الذي يتضح بجلاء على طول هذه الرحلة و محطاتها...(**48**)(ينظر: الطاهر حسيني ،الرحلة الجزائري في العهد العثماني بناؤها الفن أنواعها و خصائصها ،ص 274.).

الأمر الذي يمكن ملاحظته من خلال النماذج التالية:

_ نزل " وادي الزلامطة" و بينه و بين معسكر ست ساعات.

_ نزل "وادي العبد" و مسافة ذلك خمس ساعات.

_ نزل " دير الكاف" و فيها المسافة ست ساعات.

_ أصبح في "عين سيدي علي" و تقدير هذه المسافة تسع ساعات.

فهذا النمط من التعبير المرتكز على الأفعال الدالة على الحركة ،و الذي يتجسد من خلاله التتالي بالأيام ،و تبرز فيه المسافات المقدرة بالساعات ،وجد بصورة واضحة في مناطق العبور التي لم يجد فيها الباي محمد الكبير صعوبة إخضاعها،أو إجبارها علي الاستسلام ،ما فرضت تسريعا للأحداث غيب التقنيات التي تبطئ السرد ،و لعل هذا ما يبرز غياب تقدير المسافات بالساعات ابتداءا من بداية الاستعداد لغزو الاغواط ،و التي كانت أصعب مرحلة واجهها الباي محمد الكبير في غزوته على الجنوب الصحراوي...(**49**)(ينظر:الطاهر حسيني ،الرحلة الجزائري في العهد العثماني بناؤها الفني ،أنواعها و خصائص ،ص 275.) .

و نلاحظ أنّ ابن هطال توقف عن السرد و فتح المجال أمام المشهد ،حيث استغله للتعريف بالشخصية و ذلك في قوله : "لأنّه أطال الله بقاءه كان له فطنة زائدة ،و تجربة صادقة مع ما هو عليه ممارسة الحروب ،و فهمه لما ترمزه العيون و ما تضمره الجنوب. أما ثبوت الجنان والشجاعة فشيء تحار فيه العقول و تقصر عنه العبارة"(**50**)(ابن هطّال التلمساني ،مصدر سابق،ص 54).

و ذلك في الأخير فانّ أهمّ ملمح يمكن الخروج به من خلال الحديث عن الحركة كنموذج لهذا النوع من العهد العثماني في الجزائر،هو الحركة الّتي تميزها من خلال اعتماد الأفعال الدّالة على طبيعتها :نزل ،انطلق ،جدّ في السير،فرّ،استسلم وخضع ،قدم... وهذه الحركية ناتجة أساسا على أنّ القائم بالرّحلة يخطط لها بمعيته أعوانه ليجعلها رحلة محدّدة من حيث أماكنها محدودة من حيث زمنها ،و هو ما تجسد فعلا في هذه الرحلة التي لم تدم طويلا.

7-خاتمة :

في خاتمة هذا البحث سوف نعدد أهم النتائج الّتي تمّ التوصل إليها ،والّتي نحصُرها في النقاط التالية:

- تمثل رحلة الباي محمد الكبير إلى جنوب الصّحراوي الجزائري بقلم كاتبه الرئيسي أحمد ابن هطّال التلمساني ،جزءا من التراث العربي الإسلامي في الجزائر .
- تشتمل الرحلة إلى معلومات مختلفة وأفكار متعدّدة ،الّتي نختصرها على النحو الآتي:

– تقدّم معلومات هامّة عن سيرّة الباي محمد الكبير ،كحاكم عثمانيّ متنوّر وتفيدنا في دراسة المشروع الحضاري للباي خاصة شقه الاقتصادي.

– تمدنا بمعلومات عن واقع المدن والأرياف في الجنوب الجزائري ،ونمط عيشهم ،كمّا عرضّت لنا نماذج حقيقيّة للتصّادم الّذي حصل بيّن هذه القبائل والحكم العثماني.

– أشارت إلى الثقة التي حظيّ بها علماء المدن والأريّاف الجزائريّة من طرف الحكّام العثمانيّين من جهة ،وأهالي البلاد من جهة أخرى إضافة إلى احترام الحكام للمرأة الجزائريّة.

- تعد هذه الرحلة من المصّادر الّتي لا يمكن لأيّ باحث الاستغناء خصوصّا في فترة الربع الأخير،من القرن الثامن عشر من جهة ،بحيث نجد أنّ هذا النّص شمُل أدبيّة الرحلة حيث أنّه جمع بين النثّر الّذي كان غالبا فيه ،والشعر المقتبّس ،حيث تبيّن أنّه نصّ أدبيّ يافعٌ يتمتّع بجميع المقوّمات الأدبيّة ويطفح بمعايير الجمالية .
- أشار الرحّالة إلى بنيّة الشخصيّة المركزيّة ،وعلاقتها بالأخر والسارد ،كما أنّ المكان والزمان من البنيّات الأساسيّة في هذه الرحلة ،حيث قدّم ابن هطّال وصفا كاملا للمكان بمكونّاته ،أمّا الزمان فقد حرّره بدقة فأشار باليوم ،الشهر و السنة ،هذا ما ميّزه عن باقي الرحّالين،ومن هذا نجد أنّ كلّ رحلة سيطّرت على بنيّاتها ما يناسب طبيعتها و نوعها و الهدف الذي حدّده أصحابها منها.
- و في الأخير يمكن أن نقول أنّ الرحلة الجزائرية ،إبّان العهد العثماني حملت في ذاتها من المؤشرات ما يثبّت أدبيّتها ،هو ما يؤكد ويضفي الشرعيّة على دراستها من الجانب الفنّي كنص سردي قابل للدراسة ،ورغم قلّة الرحلات في هذا العصر إذْ ما قورنّت بالرحلات العربيّة الأخرى ،إلّا أنّها تنوّعت ،ويصعب على الباحث الفرد الإلمام بها جميعا ،بل يستدعي كلّ نوع منها بحوثا ،ودراسات متكاملة لتحقيق المراد.

بالتالي ستبقى الرحلة الجزائريّة في العهد العثماني مصدرا هاما من مصادر تاريخ الجزائري ،ومنه فإنّ تحقيق المخطوط وطبعه ودراسته ،هو واجب ومسؤوليّة البّاحثين والدّراسيين.

8–قائمة المصادر والمراجع:

- **أولا–المصادر:** أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير، تحقيق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1969.

ثانيا–المراجع:

- أبوالقاسم سعد الله، أبحاث و آراء في التاريخ، بيروت:دار الغرب الإسلامي، ج3، 2004.
- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، 1982.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر :الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ج2، 1981 .

- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته،تح:محمد بن عبد الكريم، الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990 .
- أحمد إبن عمار، رحلة نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب،الجزائر:مطبعة فونتانة، 1902.
- أحمد بوغلا، الرّحلة الأندلسية الأنواع والخصائص، المغرب:دار أبي رقراق للطباعة، ط1، 2008.
- الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهةالأنظار في علم التاريخ والأخبار،شر محمد إبن أبي شنب، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2008.
- طاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، رسالة الدكتوراه، إشراف أ.د العيد جلولي، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2014/2013.
- عبد الرحمان مودن، الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر، أبو ظبي : دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006.